هل عندنا فتيات صالحات للزواج ؟ !

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

كثيرا ما يتساءل الرجال فى مصر، الأدباء منهم والمتأدبون (هل عندنا فتيات صالحات للزواج ؟) ويتخذون من أمثال هذا السؤال وغيره مادة لكتابة المقالات وحشو الكتب ، ومع ذلك لم نسمعهم يتساءلون مرة واحدة عما إذا كان عندنا رجال يصلحون للزواج أم لا ؛ وهذا لأن أنانية الرجل تأبى عليه دائما أن ينظر الى عيوبه وأخطائه بنفس العين المجردة التى ينظر بها إلى المرأة .

ولو تعمقنا فى نفسية هؤلاء الكتاب الذين يتددون بالمرأة المصرية المثقفة ويقررون عدم صلاحيتها كزوجة وأم متناسين أن عيوبها من صنيعهم ، لو تعمقنا فى نفسيتهم لوجدناهم يؤمنون جيدا برسالتها فى الحياة ولكنهم يغالطون أنفسهم كما أن سبق وقلت فى مقالى (هل للفنان أن يتزوج ؟) لينتصروا لأفكارهم الخاطئة ومبادئهم العرجاء ، ولكن الحقيقة التى يخفونها ولا ينكرها أحد، هى أن المرأة المصرية أصلح الزوجات، وإن كانت المتعلمة تمتاز عن الجاهلة فى تلك الصلاحية ، لأنه كلما ازدادت ثقافة المرأة كانت أصلح لإدارة شئون المنزل . فالمعرفة الكاملة تنير أمامها حقائق الحياة فتعرف حقوقها وتلم بواجباتها .

وليس هناك أى حقيقة فى قول من يقول بأن المرأة كلما تجرت فى آراء أفلاطون وأبى العلاء كلما نسيت وظيفتها كزوجة وأم . ولا شك أن هذه الآراء لا يقولها إلا رجل يعيش فى عزلة عن العالم الحديث منذ عشرات السنين ، وإلا ما كان يخرج علينا بدليل ملموس على أنه يفكر بعقلية القرون الوسطى، مع أن الحقائق الثابتة تؤكد لنا دائما أن الفنان يعيش فى المستقبل، بل أن عقله يسبق عمره بمئات السنين إن لم يكن بألوفها، كى يخلق للعالم فنا جديدا يظل حيا خالدا على مر الدهور .

ويستطيع كل من يتهم المرأة المتعلمة بعدم صلاحيتها كزوجة وأم أن يتصور ما يرتسم على شفتى كل امرأة مثقفة هانئة فى عشها المنزلى الجميل من بسمات متحدية إذا ما قرأت فى أوقات فراغها بعض تلك الأفكار الخيالية العتيقة .

ويستطيع أيضا أن يرى تلك الابتسامة على شفتى بحضرة المربية الفاضلة السيدة إنصاف سرى التى أخرجت للأمة المصرية آلافا من الفتيات الصالحات . تلك المربية الجليلة التى

كانت لنا ونحن فى مرحلة التعليم الثانوى ، وقت أن كانت ناظرة لمدرسة الأميرة فوزية ، أما حازمة لا تعرف اللين أو المواربة ، وما زلت أذكر كيف كانت تحشا بلغة الأمر بضرورة التحاقنا جميعا بقسم التدبير المنزلى الخاص بالمدرسة وقولها الدائم (إننى غاضبة على كل فتاة لا تدخل قسم التدبير المنزلى) ولا يستطيع القارئ أن يتصور معنى غضب المربية الجليلة .

وليس التدبير المنزلى هو كل شىء ، فقد كانت تلقى علينا فى محاضراتها الصباحية دروسا اجتماعية وعظات نافعة تهدف بها دائما الى إعدادنا للوطن كأمهات صالحات . ولم يكن اهتمامها قاصرا على وجودنا داخل المدرسة بل أن اهتمامها خارجها كان أجل وأعظم ، فقد كان لأولياء أمورنا عندها زيارات متتابعة كلها بقصد حثهم على مراقبة أعمالنا ، والابتعاد بنا عما يشوه أخلاقنا ، حتى أننى لم أنس بعد كيف كانت والدتى تقوم بعمليات تفتيش دائمة بين كتبى ودفاترى خشية أن أكون قد خبأت بينها إحدى المجلات الأسبوعية أو الروايات الهزلية . واستمرت أدامها الله على عادتها هذه أكثر عمر دراستى .

وكانت تلك القيود تضايقنى وتؤلم نفسى ، ولكن ها أنذا وقد بدأ عقلى يدخل فى طور النضوج ، وقد رأيت بعينى كيف تعنى بعض المجلات بنشر خبر مشادة بين مطربتين أو خبر شراء الراقصة فلانة خاتما ذهبيا ، أتساءل لماذا لاتكون كل المجلات مثالية ترتفع عن الإسفاف والانحطاط الخلقى حتى تعنى كل أسرة بجمعها لزيادة ثقافة أولادها وبناتها ؟

ولندع الاجابة على هذا السؤال لأصحاب الصحف والمجلات ؛ ونعود إلى موضوعنا فنتساءل : كم من الأسر كونتها تلك الألوف العديدة من الفتيات المحظوظات اللاتى كن تحت رعاية المربية الجليلة السيدة إنصاف سرى ؟ لاشك أنها كثيرة وكثيرة . وان كان هذا لايعنى أننى أقتصر على تفضيل مدرسة الأميرة فوزية على غيرها ، فلا شك أن هذا النظام يسرى الآن فى جميع مدارسنا المصرية التى أصبحت براعيها القوية تقف أمام كل ناقد ورقيب . ولكننى أتكلم عنها كحقيقة مجردة لمستها بذاتى كى أجابه بها أولئك الذين يتهمون المرأة المتعلمة بعدم اهتمامها بشؤون المنزل .

ولا يوجد دليل واحد على أن فتيات الجامعات لايعرفن الا التشبه بالرجال وإلا كتب "برنارد شو" و" فريدريك نيتشه" ، فها هى بيوت فتياتنا المصريات المثقفات تنبى عن أن المرأة المصرية المثقفة قد أمكنها أن تضفى على منزلها كل ما لمسته فى العلم من فن ، وماتذوقته بفضله من رقة وجمال .

وأدباؤنا أنفسهم لهم آراء متناقضة فى هذا الصدد ، فبينما يقول بعضهم فى كتاب له " ان القول بأن المرأة للبيت لا لمزاحمة الرجل لا يحول مطلقا دون تثقيف المرأة تثقيفا تاما لتكون زينة البيت وأستاذ الطفل ، ومعلم الجيل " وفى مكان آخر من الكتاب نفسه يعود

فيناقض قوله ويذكر أن " خريجات الجامعة يحذقن تقليد الرجل فى جهله بشؤون البيت ومعرفته بآراء افلاطون وأبى العلاء ولا يعرفن كيف تقلى بيضة ، فاذا مرض الطباخ أو خرج ، تغذى الزوج بزبدة أفكار أفلاطون ."

والمرأة ترقب كل هذه المتناقضات بهدوء وسكينة وتنظر إلى المعتدين عليها الغامطين لحقوقها نظرة الأم الحنون إلى طفلها الشقى العابث . وهى فى الواقع واثقة من سمو مكانتها فى هذه الحياة ، مقتنعة بأن عليها يتوقف توجيه الأمم ورفعتها وبأن رسالتها للمجتمع رسالة سامية تعلو فى بعض الأحيان على رسالتها كزوجة .

كما ان من الكتاب من يعيبون على المرأة تشبهها "بكلوديت كولبر" و"بتى جرابل" وقد أغفلوا أمر تشبه الرجل بروبرت تايلور والمرحوم رودولف فالنتينو ؟

ألم تخلق الرشاقة والتانق للمرأة كما خلقت الخشونة والتقشف للرجل ؟

ان للمرأة أنوثتها وللرجل رجولته ، ولا حاجة بنا لشرح ما بين الكلمتين من فرق ، فلكل منهما وقع فى الأذن له مدلوله ومعناه .

وانى أؤكد لكل شاب يحاول أن يشوه من جمال رجولته بما يصطنعه من نعومة وطراوة بأن المرأة لا يمكن أن تشعر نحو أمثاله إلا بالاحتقار والاشمئزاز ، وأنه لا يستويها فى الرجل إلا خشونته وكمال رجولته .

ولا يفوتنى هنا أن أتساءل عما إذا كان يصلح للقيام بأعباء أسرة وتمثيل دور الأب من نراه بأعيننا فى صالونات التجميل يتصقل أظفره ، ويقوم بعمليات " البرمانانت " و " الفريزية " لشعره اللامع كى يتناسق على وجهه الممسوخ ؟ .

أو ذاك الذى لا يشعر بالخجل وهو يتمسح بالسيدات على محطات الترام وفى عرض الطريق بينما رائحة " الماماريه " و " الجاردان سيكريه " تفوح من وجهه وثيابه ؟

أوذاك المخنث الذى يسير متأودا وهو يلوك فى فمه أغنية تافهة مثل تلك الأغانى المبتذلة الرخيصة التى تعنى بحاربتها مجلة الشؤون الاجتماعية ؟

أليس فى كل هذا الذى تراه المرأة من أشباه الرجال هؤلاء دافعا قويا لها على زيادة تبرجها والاسراف فى زينتها حتى يمكنها أن تقف أمام مزاحمها الجرىء الذى تراه قد مسخ رجولته تشبها بها ؟ .

إن المرأة لا تفعل فى الحقيقة شيئا غير ما تمليه عليها حمايتها لأنوثتها أمام عدوان بعض الرجال وطغيانهم على حقوقها .

فليكن كل الرجال رجالا ، تكن كل النساء ملائكة . ليعش كل منهم فى حدود وظيفته المقدسة ، فتستقيم الأخلاق ، ويمحى الفساد ، وتتقى الانهيار .

وليعلم كل من لا هم لهم إلا شن الحملات على المرأة المصرية وانتقادها ، بأنه قد آن لها أن تدافع عن نفسها ، وتثبت للعالم فضلها وسمو مكانتها . وأنها رغم كل ناقد ربة منزل موفقة تجيد تدبير المنزل ، وتدرك تماما مسئوليـة الأسرة ، كما استطاعت أن تجيد صوغ الشعر ومختلف الفنون .

ان من لا يعترف للمرأة بذلك فهو دون شك لم يلمس الحياة فى البيوتات المصرية الحديثة ، وإلا فهو يعنى بقوله وانتقاداته أولئك المدعيات اللاتى لم ينلن من التعليم إلا القشور ، وهن دون شك لا يصلحن لأن يكن أساسا للحكم على كل الفتيات المتعلمات . ومن حسن الحظ أن تلك الفئة قد زالت تقريبا برقى مستوى التعليم فى مصر ، وتعديل برامجه بما يتفق وروح العصر الحديث .

ولم تنفرد مصر وحدها بهـذه الفئة القليلة من أشباه المتعلمات ، فدوننا مؤلف الكاتبة الانجليزية " إلميس هاملتون " الذى تتكلم فيه عن المرأة الانجليزية وتذكر أن الفتاة " منهن كانت فيما مضى تخرج من المدرسـة وهى جاهلة كل الجهل بمسؤولية الأسرة وشؤونها ، وتعتمد على الخدم فى العناية بأمر المنزل وتحمل تبعاته " .

لقد تصادف أن زرت منذ بضعة أيام منزل إحدى زميلاتى ، وكانت قد تخرجت معى وتزوجت من زوج يماثلها ثقافة وميولا . وما أن دخلت منزلها حتى حسبت أننى فى جنة الفردوس .

لقد زينت صالونها بلوحات " رافاييل " و " بوتشيللى " و " ماجوزيللى " وغـيرهم من كبار الفنانين العالميين ، وكلها تنطق بسلامة ذوقها فى اختيار أوضاعها وانسجام ألوانها ، وجمـال فنها . وخصصت غرفة للمكتبة حوت الكثير من الكتب العربية والغربية ، القديم منها والحديث ، ولما تصفحت أحدها رأيت الزوج والزوجة " مهمشين " على الكتاب بما عن لهما من تعليقات على آراء المؤلف ، فأدركت انهما يشتركان سويا فى الفكر والعاطفة .

عندئذ تذكرت كلمة الكاتب الكبير الذى قال " إن اليوم الذى تعنى فيه المصرية باقتناء لوحة زيتية صغيرة أو " اسكس " بسيط ينم عن ذوق ، تزين به جدار منزلها ، هـو اليوم الذى يزدهر فيه عندنا التصوير . واليوم الذى تهتم فيه المصرية بشراء نسخة من كل كتاب للمؤلف الذى تفضله هو اليوم الذى يرقى فيه عندنا الفن والأدب " .

ليطمئن بال الكاتب الكبير وليثق أننا قد خطونا قدما إلى المدنية الصحيحة ونحو الفن الرفيع، لقد تعلمت الفتاة المصرية وتهذبت ، ومع ذلك فهى لم تزل مغبونة بين المجتمع ، وكأن ثقافتها جرم كبير اقترفته فى حق الرجل .

حقا لقد حارت المرأة فى العمل على إرضاء الرجل. فهى إذا ظلت جاهلة ، رماها الرجل بالرجعية والجمود ونفر منها واختار الاجنبية بدلا عنها. وهو لن يعدم حجة يبرر بها هذا العمل .

أما إذا تعلمت وتثقفت وتهذبت ، واكتسبت بالمعرفة خبرة تنفعها فى إدارة بيتها وتربية أولادها ، رماها الرجل بأنها لا تعرف كيف تدبر أمر المنزل ، وأنها تطعمه زبدة أفكار أفلاطون ، وضلع أينشتين ، وسلاطة جى دى موپاسان .

لقد حرنا مع الرجل واحتار هو نفسه فى أى التهم يختار ليقذف بها المرأة المصرية .

ليفهم الرجل جيدا أن المرأة هى أساس الكون ، وأن عليها تتوقف سعادة الأسرة ، وأنها هى رمز تقدم الأمم .

إنهم يرمون المرأة بأنها لا تقول كلمة الحق . فمتى يقول الرجال كلمة الحق . الكلمة التى قالها جان جاك روسو " الرجال من صنع النساء. فاذا أردتم رجالا عظماء ، فعلموا المرأة ما هى عظمة النفس ، وما هى الفضيلة " .

هى كلمة حق صراح ، فمتى يقولها من لا هم لهم إلا نقد أعمال المرأة المصرية وغمط حقوقها ؟

زينب محمد حسين